السبحة عند العرب

الدكتور عبدالعزيز حميد
كليـة الاداب ـ جامعة بغـداد

التسبيح هو تعظيم الله وتنزيهه من كل سوء[١] قال الله تعالى فسبح باسم ربك واستغفره انه كان توابا[٢] وقال سبحانه وتعالى ايضا « فسبحْ باسم ربك العظيمْ »[٣] أى سبحه باسمائه ونزهه عن التسمية بغير ما سمى به نفسه[٤] ويذكر لنا البخارى بان لفظة التسبيح اسـم مصدر من قـول (سبحان الله)[٥] .

وفي حديث عن ابي هريرة ان رسول الله قال : « من قال سبحان الله وبحمده في اليوم مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثـل زبد البحر »[٦] .

لقد سمّت العرب السبّابة هو الاصبع الذي يلي الابهـام ، بمسبحة لانه يشار بها عند التسبيح[٧] فقد كان المسلم يستعين باصابع يديـه في التسبيح . وقد روى عن عبدالله بن عمرو انه قال : « رأيت رسول الله يعقد التسبيح بيمينه » .وهو قول رواه لنا ابو داود والترمذى وغيرهم[٨] وفي

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب جـ ٢٠ ، ص ٤٧٣ (طبعة بيروت ١٩٥٥) .
(٢) سورة النصر آيـة ٣
(٣) سورة الواقعة آية ٧٤
(٤) ابن منظور ، المصدر السابق ، جـ ٢٠ ص ٤٧٤
(٥) البخاري ، الجامع ، جـ ٢٣ ، ص ٢٥
(٦) المصدر السابق ، جـ ٢٣ ، ص ٢٥
(٧) ابن منظور ـ المصدر السابق ، جـ ٢٠ ص ٤٧٤
(٨) محمد ناصر الدين الالباني ، سلسلة الاحاديث الضعيفة والموضوعة . المجلد الاول ، الجزء الاول ، ص ١١٢ (طبعة دمشق) ١٣٨٤ هـ .

حديث رسول الله (ص) انه قال لبعض النسوة : « عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ولا تغفلن فتنسين التوحيد واعقدن بالانامل فأنهن مسؤولات ومستنطقات » . وهو حديث اخرجه ابو داود وغيره وصححّه الحاكم الذهبي وحسنه النووي العسقلاني[٩] .

واذا انتقلنا الى الخطوة الثانية في التسبيح وهي الاستعانة بالنوى أو الحصى في عد ما يروم المرء قوله في التسبيح فهناك حديثين اوردهما السيوطي في هذا الباب .

اولهما : عن صفية زوج الرسول وهو قولها « دخل عليّ رسول الله (ص) وبين يدى اربعة آلاف نواة اسبح بهن فقال ما هذا يا بنت حبي ؟ قلت : اسبح بهن قال سبحت منذ قمت على رأسك اكثر من هذا قلت علمني يا رسول الله . قال : قولي سبحان الله عدد ما خلق من شيء[١٠] .

وثانيهما عن سعد ابن ابي وقاص (ر) انه دخل مع النبي (ص) على امرأة وبين يديها نوى او حصا تسبح . فقال : اخبرك بما هو ايسر عليك من هذا وافضل قولي سبحان الله عدد ما خلق في السماء[١١] ..

فقد ذكر ان كلا الحديثين موضوعين في وقت لاحق او انهما ضعيفي الاسناد[١٢] كذلك فقد شكّكَ فيما رواه لنا السيوطي ايضا من ان كلا من سعد بن ابي وقاص(ر) وابا صفية مولى رسول الله (ص) كانا يسبحان بالحصى او النوى[١٣] .

---

(٩) المصدر السابق : نفس الجزء والصفحة .

(١٠) جلال الدين السيوطي الحاوي للفتاوي جـ ٢ ، ص ١٣٩ـ١٤٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢

(١١) السييوطي ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٤٠

(١٢) محمد ناصر الدين الالباني ، المصدر السابق ، المجلد الاول ، الجزء الاول ص ١١٢ .

(١٣) السيوطي ، جـ ٢ ، ص ١٤٠

ومهما يكن من امر قد تحول الكثير من المسلمين الى الاستعانة بالحصى او النوى في الذكر رغم مايبدو من كراهية عند الصحابةوالتابعين حتى انه روى لنا عن الصحابى عبدالله بن مسعود المتوفى في سنة ٣٢ هجرية انه مر « بامرأة معها تسبيح تسبح به فقطعه والقاه ، مر برجل يسبح بحصا ، فضربه برجله ، ثم قال : لقد سبقتم ! ركبتم بدعه ظلما ، ولقد غلبتم اصحاب محمد (ص) علما »[١٤] . كما روى ايضا ان عمر بن عبدالعزيز (ر) مر « يوما برجل يسبح بالحصا فاذا بلغ المائة عزل حصاة ، فقال له عمر : الق الحصا واخلص الدعاء »[١٥] .

ومن طريف ما يرويه الجاحظ بشأن استخدام الحصى في التسبيح « ان عبدالملك بن هلال الهنائي[١٦] كان عنده زنبيل ملأى من حصى فكان يسبح بواحدة واحدة فاذا ضجر فبأثنين اثنين ثم ثلاثة ثلاثة ، فاذا مل قبض قبضة وقال سبحان الله بعدد هذا الحصى واذا بكر لحاجة وكان مستعجلا لحظ الزنبيل وقال سبحان الله بعدد ما فيه »[١٧] .

وعلى الرغم مما يبدو ان الاستعانة بالنوى او الحصى بالتسبيح كان الى حد ما مكروها عند المسلمين في الايام الاولى ، فان مثله مثل غيره من الامور التي لم يجد له بعض المؤرخين العرب تفسيرا واضحا فحدا بالبعض منهم ان يعزوه لاسباب غيبية . من ذلك ما يرويه الجاحظ انه لما وقع النبي يونس في الجب وابتلعه الحوت « هوى الى قرار الارض فسمع تسبيح الحصى[١٨] ـ

---

(١٤) الالباني ، ص ١١٢

(١٥) الجاحظ ، البيان والتبيين ، جـ ٢ ، ص ٢٨١ (طبعة مصر ١٩٤٨) .

(١٦) الهنائي ، بضم الهاء ، نسبة الى هناء بن مالك بن جهم والخبر في عيون الاخبار مع خلاف في اللفظ (ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، جـ ٢ ، ص ٥٩) .

(١٧) الجاحظ ، البيان والتبيين ، جـ ٣ ص ٢٨٣

(١٨) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٨١

فنادى في الظلمات : « ان لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين »[١٩] .

ومهما يكن من امر فربما الذي ساعد على الاستعانة بالحصى ان التسبيح كان يتم في اغلب الاحيان بعد الفراغ من اداء فريضة الصلاة ، ولما كانت الصلوات تتم في المساجد ، والمساجد الاسلامية الاولى كانت مفروشة بالحصى مثل مسجد الكوفة والبصرة في العراق ، فقد اصبح هذا التحول امرا معقولا .

ومع كل ما تقدم فيبدو ان العرب لم يكونوا اول من استخدم الحص في التسبيح فقد ذكر ان بعض القديسيين الاوائل من النصارى قد استعانوا بالحصى في ضبط عدد الصلواة ، منهم القديس بولس الاسكندراني المتوفى سنة ٣٤١ ميلادية الذي كان يضع ثلثمائة حصوة في حجرة يسقط واحدة منها كلما فرغ من اداة صلاة ومجموع الحصى كان يوازي مجموع ما كان يصليه في اليوم الواحد[٢٠] . ومع ذلك فنحن لا نرى بوجود علاقة اقتباس حتمية بين استخدام الحصى عند بعض العرب المسلمين في التسبيح وبين اتخاذها كوسيلة في ضبط عدد الصلواة عند بعض قديسي النصارى . ويبدو ان الاستعانة تلك قد جاءت تطورا طبيعيا ومنطقيا عند كلا الجانبين . وربما ان مثل ذلك الاستخدام للحصى قد عرف ايضا عند شعوب واصحاب ديانات اخرى كالهنود والبوذيين او غيرهم . فالواقع انه لو العرب المسلمين قد اخذوا تلك الفكرة عن النصارى او غيرهم لما سكتت المدونات التاريخية العربية القديمة ولا المصادر المسيحية عن الاشارة ، او على الاقل عن التلميح الى ذلك .

والخطوة التالية في التسبيح هو استخدام خيط ذو عقد كثيرة بدلا عن

---

(١٩) سورة الانبياء ، آية ٨٧

(٢٠) The Catholic Encyclopedia, Vol. 2 P. 360.

الحصى او النوى ولا شك ان مثل هذا الخيط ذو العقد اسهل في عد التسابيح وفي غير شك اخف وزنا من الحصى او النوى . ويذكر لنا السيوطي ان فاطمة بنت الحسن بن علي بن ابي طالب (ر) كانت تسبح به[٢١] كما ذكر لنا ايضا ان ابا هريرة كان له خيط فيه الفا عقد فلا ينام حتى يسبح به »[٢٢].

اما السبحة (والمسبحة) ، وهي الخرزات المنضودة بسلك ، خطوة اخرى في سلم تطور الاستعانة بالوسائل في عد ما يرومون عده من التسابيح او ذكر ما يريدون ذكره من اسماء الله الحسنى .

يقول الزبيدي في السبحة « انها ليست من اللغة في شيء ولا تعرفها العرب ، وانما احدثت في الصدر الاول اعانة على الذكر وتذكيرا وتنشيطا[٢٣] ويكتب ابن منظور بانها « الخرزات التي يعد المسبح بها تسبيحه وهي كلمة مولده[٢٤] اى انها اشتقت من كلمة عربية اصيلة في وقت متأخر نسبيا » .

ونتيجة لذلك فلا شك ان الحديث الذي ساقه لنا السيوطي عن الديلمي في (مسند الفردوس) عن علي بن ابي طالب (ر) عن النبي (ص) « نعم المذكر السبحة » . هو حديث موضوع[٢٥] وقد رفض هذا الحديث الالباني ليس فقط لان جل رواته مجهولون وبعضهم متهم ، لان السبحة في حد ذاتها « بدعة لم تكن في عهد النبي (ص) وانما حدثت بعده فكيف يعقل ان يحضى عليه الصلاة والسلام اصحابه على امر لا يعرفونه » ؟[٢٦].

---

(٢١) السيوطي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٠

(٢٢) نفس المصدر والصفحة نفسها

(٢٣) الزبيدي تاج العروس ، ج١ ، ص ٤٤٢ـ٤٤٥

(٢٤) ابن منظور ، لسان العرب ، ج٢٠ ، ص ٤٧٣

(٢٥) السيوطي ،ج ٢ ، ص ١٤١

(٢٦) الالباني ، مجلد ، ١ حـ١ ص ١٣٢

ونتيجة لذلك يبدو ان كثير من الفقهـــاء قد اعتبروا السبحـــة امرا مكروها في صدر الاسلام • والســـبب في ذلك كما يظهر يعود بالدرجـــة الاولى الى ان استعالها كان بدعة كما ان استعمالها قضت او كادت « على سنة العد بالاصابع[٣٧] • وحتى لنجد بين الفقهاء المحدثين من يعتبـر اسـتعماله السبحة في التسبيح امرا مكروها » [٢٨] •

ومع كل ذلك فيظهر لنا من تمحيص النصوص التاريخية ان تلـــك الكراهية لم تكن مطلقة او شديدة فقد ذكر لنا البعض بان عقد التســـبيح بالانامل افضل من السبحة ان آمن من الخلط في العد ولا فالسبحة اولى[٢٩] •

ومهما يكن من امر فنحن لا ندري ان كان العرب المسلمين قد اقتبسوا فكرة استخدام السبحة عن غيرهم من اصحـــاب الحضارات القديمـــة الاخرى • غير انه اذا حصل ووقع مثل ذلك الاقتباس فلا يمكن ان يكـون قد تم عن طريق النصارى • اذ ليس هناك ما يدل انهم قد عرفوها قبل القرن التاسع الميلادي وكثر استخدامها عندهم في القرنين الحادي عشر والثانـي عشر حيث وجدت ضروب منها في قبور بعض من اوليائهم مثـــل القديس

---

(٢٧) نفس المصدر ١٣٣

(٢٨) وقد كتب الشيخ محمد ناصر الدين الالباني في ذلك « ولم تكن للسبحة الا سيئة واحده وهي انها قضت على سنة العد بالاصابع او كادت، مع اتفاقهم على انها افضل لكفى ، فاني قلما ارى شيخا يعقد التسبيح بالانامل ثم ان الناس قد تفننوا في الابتداع بهذه البدعة ، فنرى بعض المنتمين لاحدى الطرق يطوق عنقه بالسبحه ! وبعضهم يعد بها وهو يحدثك او يستمع لحديثك ••• وكثيرا ما تكون هذه البدعة سببا لاضاعة ما هو واجب ، فقد اتفق لي مرارا ــ وكذا لغيري ــ اني سلمت على احدهم فرد علي السلام بالتلويح ! دون ان يتلفظ بالسلام ! ومفاسد هذه البدعة لا تحصى ••• »
(الالباني ، سلسلة الاحاديث الضعيفة والموضوعة ، المجلد الاول ، جـ ١ ، ص ١٣٣) •

(٢٩) السيوطي ، المصدر السابق ، ص ١٤١ •

فروجرت والقديس روزالي المتوفيان في القرن الثاني عشر الميلادي[٣٠] بينما نجد ان استخدام السبحة عند العرب المسلمين هي اقدم عهدا من استخدامها عند النصارى ، اذ ذهب بعض المصادر العربية القديمة ، كما مر بنا ، قد عرفت منذ العصر الراشدي ، اي في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي[٣١] .

كذلك هناك اشارات الى استخدامها في العصر الاموي وذلك ايام ولاية عثمان بن حيان المولى على المدينة المنورة من قبل الخليفة الوليد بن عبدالملك (٨٦-٩٦ هـ / ٧٠٥-٧١٥ م) . فقد وردت تلك الاشارة بمناسبة تحريم هذا الوالي الغناء والملاهي في المدينة المنورة في حدود سنة ٩٢ هجرية (٧١١ م)[٣٢] ، ونتيجة لذلك فقد ذهب غالبية الباحثين من علماء اللاهوت الى ان بلاد المشرق هذا الموطن الاصلي للسبحة[٣٣] .

لا شك ان استعمال السبحة قد ازاد الى درجة كبيرة في العصر العباسي حيث اخذت ترد كثيرا في المصادر التاريخية التي تناولت تلك الحقبة الزمنية من تاريخ العرب والاسلام . ومن تفحص النصوص التاريخية التي لها علاقة بالسبحة في العصر العباسي يتبين لنا ان كراهية استخدام السبحة في التسبيح قد خفيت الى درجة كبيرة . ومن الادلة التي يمكن ان نسوقها على ذلك ان الخليفة الهادى (١٦٩-١٧٠ هـ / ٧٨٥-٧٨٦ م) عندما امر أمه الخيزران بالكف عن التدخل في شؤون المملكة قال لها من جملة ما قال :

---

(٣١) المصدر السابق ، ص ١١٢

(٣٢) The Catholic Encyclopedia, Vol. 2. P. 362.

(٣٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٦ ، ص ٥٠ (طبعة مصر ١٩٤٨) .

(٣٣) The Catholic Encyclopedia, Vol. 2, P. 363.

« ... وعليك بصلاتك وسبحتك وتبتلك ... الخ »[٣٤] كما ان الكثير من الفقهاء والشيوخ في ذلك العصر كانوا يستخدمونها في التسبيح منهم علي بن محمد السلمي والمقرى وسرى بن مغلس السقطي ومعروف الكرخي وعمر المالكي وغيرهم[٣٥] ،والمتوفي في بغداد سنة ٢٩٧ هـ وفي يده سبحة ، « فقيل له : انت مع شرفك تأخذ في يدك سبحة ؟ فقال : طريق وصلت به الى ربي لا افارقه »[٣٦]. وروى انه كان قد سئل قبله الحسن البصرى السؤال نفسه فاجاب : « شيء كنا استعملناه في البدايات ما كنا نتركه في النهايات ، احب ان اذكر الله بقلبي وفي يدي ولساني »[٣٧] .. هذا وقد قال عنها بعض المتصوفة « بانها مذكرة الله تعالى لان الانسان قل ان يراها الا وبعضهم (رابطة القلوب)[٣٨] .

والواقع ان هذا الضرب من الاستخدام للسبحة في العصر العباسي قد كان هو الغالب حتى نهاية العصر ذلك العصر الطويل الحافل بالاحداث[٣٩].

---

(٣٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٠٥

(٣٥) السيوطي ، جـ ٢ ، ص ١٤٣

(٣٦) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ١ ، ص ٣٢٣-٣٢٤ (طبعة مصر ١٩٤٨)

(٣٧) السيوطي ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٤٣

(٣٨) نفس المصدر والصفحة .

(٣٩) والنصوص التأريخية في ذلك كثيرة ، منها ما ذكر من ان السبب في عدم تحرك المأمون لبيت من الشعر قيل في مدحه وهو :

اضحى امام الهدى المأمون منشغل
بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

ان الشاعر لم يرده على « ان جعله عجوزا في محرابها في يده سبحة » (ابن الجوزي ، الاذكياء ، ص ١٠٧ ، طبعة مصر ١٩٥٨) .

ومنها ايضا ما يرويه لنا الصابي في انه في اليوم الذي قبض فيه الحسن بن الفرات في نهاية وزارته الثانية « دعا بالطعام فاكل ثم مال الى بيت منامه وانتبه وقت العصر ، وجدد الوضوء وصلى في الدار المعروفة بدار الصلاة ، وجلس على مصلاه يسبح ... »

(الصابي ، الوزراء ، ص ٢٦٤ ـ طبعة مصر ١٩٥٨) وغيرها من النصوص الكثيرة التي لا مجال لسردها او الاشارة اليها جميعا في هذا البحث .

ولا شك ان السبح التي كان يستعملها المتصوفة والمتمثلون كان حباتها اما من ضروب الخشب او من البذور الصلبة او من الطين المصبوغ او المفخور . وقد ذهب بعض المحدثين من الباحثين الى ان تلك السبح ربما كانت تجبل من تراب مكة المكرمة او المدينة المنورة لما لهاتين البقعتين الشريفتين من احترام عميق لدى المسلمين جميعا . ففي اولاها بيت الله الحرام وفي ثانيهما قبر الرسول الاعظم(٤٠) . غير انه ليس بين ايدينا من النصوص التاريخية ما يؤيد او ينفي هذا الاعتقاد .

ويبدو ان استخدام السبحة عند العرب في العصر العباسي لم يقتصر على الذكر والتسبيح . فقد اتخذ بعضها للتسلية كما هي الآن . ونجد ان الاشارات التاريخية تكثر حول استعمال الاحجار الكريمة والاخشاب الجيدة في صناعة حباتها ابان ذلك العصر . ويذكر كثير من المؤرخين القدامى ان بعض تلك السبح كانت تنضد حباتها من الدر الكبار ، وذكر ان الخليفة المأمون (١٩٦ ـ ٢١٨ هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣ م) كان عنده واحدة منها(٤١) .

كما ذكرت سبحة در اخرى كانت قد بعثت بها قبيحة زوجة المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧ هـ / ٨٤٧-٨٦١ م) الى ضرتها ام المؤيد اخ ابنها المعتز(٤٢) . والدر كما يصفه الجاحظ لآلىء كبار لا يقل وزن الواحدة منها عن نصف المثقال(٤٣) ويكتب التيافشي بان الدر هو لؤلوء زاد وزنها عن « وزن درهمين ولو حبة واحدة »(٤٤).

---

(٤٠) The Catholic Encyclopedia, Vol. 2, P. 363.

(٤١) الغزالي : الجماهير في معرفة الجواهر ص ١٥٦ (طبعة حيدر اباد ، ١٣٥٥هـ)

(٤٢) المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(٤٣) واذا زاد الدرة على ثلاثة مثاقيل فتسمى عندئذ بالدرة اليتيمه (الجاحظ) ، التبصر بالتجارة ، ص ١٩ ، طبعة مصر ، ١٩٦٦ .

(٤٤) احمد بن يوسف التيفاشي ، ازهار الافكار في جواهر الاحجار ، ص ٥٥

ووردت اشارة الى سبحة قوامها لآلىء كبار مثمنة ارسلتها ارسلان خاتون ابنة السلطان طغرل بك الى زوجها القائم بامر الله (٤٢٢-٤٦٧ هـ / ١٠٣١-١٠٧٥ م) اثر عودته من منفاه في مدينة حديثة الى بغداد بعد القضاء على حركة البساسيري الشهيرة[٤٥] . ويبدو ان المقصود بالمثمنه غلاء ثمنها[٤٦] .

ومن ضروب السبح التي وصلتنا اشارة اليها سبحة حباتها يواقيت رمانية حجم الواحدة منها حجم البندقه ، كانت السيدة زبيدة زوج هرون الرشيد قد ابتاعتها بخمسين الف دينار[٤٧] .

ومن انواع السبح ايضا سبحة كتب لنا عنها القاضي الرشيد بن الزبير المتوفي في القرن الخامس الهجري بانها من (سبح) . والسبح حجر اسود اللون . يقول عنه التيفاشي المتوفي في سنة ٦٥١ هـ (١٢٥١ م) بانه من الاحجار الرصاصية ويؤتي به من موضعين احدهما الهند والاخر بلاد فارس ، اجوده ، الهندي وهو حجر اسود شديد السواد وانه يُرى فيه الوجه كالمرآة[٤٨] .

---

(٤٥) على اثر مغادرة طغرل بك الى الموصل ثم نصيبين لقمع حركة قام بها اخوه ابراهيم دخل البساسيري بغداد في سنة ٤٥٠ هـ ومعه الرايات المصرية « وعلى رأسه اعلام مكتوب عليها الامام المستنصر بالله ابو تميم معد امير المؤمنين وقد نفي الخليفة القائم بالله الى حديثة بعد ان دخل بذمة الامير قراوش بن بدران . وكان البساسيري قد احتل بغداد في ٦ ذي القعده وخرج منها في ٦ ذي القعده من السنة التالية وقد قتل في معركة قرب واسط وعاد الخليفة الى بغداد (ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٨ ص ١٩٣-٢١١)

(٤٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٨ ، ص ٢٠٧

(٤٧) الغزالي ، المصدر السابق ، ص ٥٨

(٤٨) ويكتب التيفاشي عن هذا الحجر ايضا « ان من خواصه انه اذا اخذ قص منه واد من النظر اليه احد البصر واعاد قواه » التيفاشي ، أزهار الافكار في جواهر الاحجار ص ١٨٦-١٨٧) .

ويقول الجواليقي في المعرب ان السبح خرز اسود[٤٩] . وقال عنه البيروني بانه حجر اسود حالك صقيل رخو جدا خفيف تأخذ فيه النار ربما يشتعل اذا احمته الشمس[٥٠] . لم يورد التيفاشي او غيره من القدماء من الصفات التي تساعد على تحديد الاسم العلمي الصحيح لهذا المعدن . وربما هو حجر الجيت jet وهو من ضروب الفحم الحجري الصلب[٥١] . لقد اهديت تلك السبحة الى القاضي ابي علي المحسن بن علي التنوخي مع ابيات طريفة من الشعر هي :

بعثت يا بدر بني يعرب ... بسبحة من سبح معجب
يقول من ابصرها طرفة ... نعم عتاد الخائف المذنب
لم تحظ ان فكرت في نظمها ... ولونها من حمة العقرب[٥٢]

هذا وقد وردت كثير من الاشارات لسبح لم يحدد نوع الحجر الكريم الذي يشكل حباتها واقتصر الرواة على القول بانها سبح جوهر . والجوهر هو الحجر الكريم بشكل مطلق ، اي اسم عام لجميع الاحجار النفسية . وقد حدده الجواليقي بانه يطلق على ما يخرج من البحر وما يحويه مجراه من النفاسة مثل الياقوت والزبرجد واللؤلؤ[٥٣] .وقد خص به التيفاشي اللؤلؤ بالذات[٥٤] .

---

(٤٩) الجواليقي ، المعرب ، ص ٢٣

(٥٠) البيروني ، الجماهر في معرفة الجواهر ، ص ١٩٩ .

(٥١) التيفاشي ، التعليقات ، ص ٢٨٧

(٥٢) ابن الزبير ، الهدايا والتحف ، ص ٢٣ (طبعة الكويت ١٩٥٩)

(٥٣) الجواليقي ، المعرب .

(٥٤) وقد كتب في ذلك : « كما ان الورد اسم عام لكل زهر ثم خص به الورد المعروف بفضله ، كذلك القافية زهرة لكل نبات ثم خص بها فاقية الحناء . (التيفاشي ، ص ٤١) .

ومن سبح الجوهر تلك واحدة اهدتها قبيحة ام المعتز الى زوجها المتوكل على الله بمناسبة عودته من دمشق الى سامراء ، قيل انها سبحة « لا يعرف لجوهرها قيمة »[٥٥] ومنها ايضا واحدة للمقتدر على الله (٢٩٥ ـ ٣٢١هـ / ٩٠٨ ـ ١٦٣٢ م) كانت من جملة ما صودر عليه التاجر البغدادي بن الجصاص بعد ان ثبت عليه تستره واخفاؤه في منزله عبدالله بن المعتز[٥٦] . وكان والاخير قد فشل في محاولة قام بها انصاره لعزل الخليفة المقتدر على الله في سنة ٢٩٦ هجرية وتنصيب عبدالله بن المعتز خليفة بدلا عنه[٥٧] . لقد قومت تلك السبحة بثلاثين الف دينار[٥٨] وقومها البعض من المؤرخين بثلثمائة الف دينار[٥٩] . حتى اصبحت مضرب المثل عند البغداديين في الندرة والنفاسة . وقد اتهمت بسرقتها فيما بعد قهرمانة المقتدر (زيدان) ، وان كان قد ذهب بعض من المؤرخين الى ان تلك السبحة لم تسرق وانما اهديت اليها من قبل الخليفة نفسه[٦٠] وقد عرفت السبحة تلك منذ ذلك الوقت بسبحة زيدان رغم انها قد اعيدت الى خزانة دار الخلافة على يد الوزير علي بن عيسى كما يبدو[٦١] .

---

(٥٥) ابن الزبير ، المصدر السابق ، ص ٣٢

(٥٦) لقد كان الحسين بن عبدالله الجصاص من اغنى اغنياء العراق في القرن الرابع الهجري كان جوهريا بدأ في جمع ثروته في مصر ببلاط احمد ابن طولون ثم انتقل الى بغداد . قبض عليه في سنة ٢٩٦ هـ على اثر تستره على ابن المعتز ، فانفذ الى داره من يحص) ثروته ويحملها فارتفعت قيمة ما صودر منه الى ستة ملايين دينار . ومع ذلك فقد بقيت عنده ثروة من مال وعقار تزيد في قيمتها على المليون دينار . توفي ببغداد سنة ٣١٥ هجرية .
(ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٦ ، ص ٢٦١)

(٥٧) ابن الجوزي ، المصدر السابق جـ ٦ ، ص ٢١١

(٥٨) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ١٩٥

(٩٤) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٧٠

(٦٠) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ٤١٥ (طبعة بيروت ١٩٧٠)

(٦١) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٧٠

ومن سبح المقتدر النفيسة الاخرى سبحة جوهر عدد حباتها مائة ، يقال انها عرضت على الجوهريين ببغداد « فقوموا » كل حبة منها بالف دينار واكثر ، فكان اذا اراد (المقتدر) ان يسبح استدعى بها ثم يردها لتعلق في الخزانة في خريطة[٦٢] . والخريطة هي غلاف من جلد كانت تحفظ بها .

واذا انتقلنا الى شكل السبحة عند العرب وطريقة نظمها وعدد خرزاتها نجد ما يشير الى ان السبحة كانت تنتهي بخاتمة . والخاتمة هي رأسها[٦٣] واكبر الظن ان خرزة الخاتمة ، هي كما عليه في السبح المستعملة في الوقت الحاضر ، اكبر حجما واكثر طولا من بقية الخرزات . وقد تكون من ضرب مغاير . فيكتب لنا المسعودي المتوفي في سنة ٣٤٦ هجرية (٩٥٧ م) بانه نقل اليه من شاهد عند الحسين بن الجصاص التاجر العراقي المعروف الذي سبقت الاشارة اليه عشرين سبحة جوهر « عدد حبات كل منها مائة ، ختمت كل سبحة منها بياقوتة حمراء قال عنها ابن الجصاص » « لعل قيمتها اكثر مما تحتها » .[٦٤]

ومن غربلة النصوص التاريخية التي بين ايدينا يظهر ان عدد حبات السبحة بشكل عام كان مائة حبة . ولا شك ان الخاتمة هي ضمن المائة . فيكون الرقم الحقيقي لعدد الحبات في السبحة العربية الاسلامية تسع وتسعون حبة ، وهو عدد مساو لاسماء الله الحسنى . ولذلك فلا نجد علاقة بين عدد الحبات في السبحة العربية الاسلامية والسبح المستعملة في الصلاة عند النصارى في القرون الوسطى وما تلته من العصور . فالسبحة الكاملة العدد عند الكاثوليك مثلا (Full Rosary) يزيد عدد حباتها على المائة والستين ، وهي في العادة لا تستعمل الا من قبل رجال الدين ، اما الاخرون

---

(٦٢) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، جـ ٧ ص ٢٥٥

(٦٣) وتسمى محليا في العراق اليوم (الشاهول) .

(٦٤) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٤ ص ٢٣٤ـ٢٣٥

فيستعملون سبح عدد حباتها ثلث السبحة الكاملة . كما ان هناك سبح يبلغ حباتها الثلاثة والستين وهو عدد مساو لعدد سنين حياة العذراء . اما عند الفئة التي تعتمد بان عمر العذراء كان ٧٢ سنة فنجدهم يتخذون سبحا ذات اثنين وسبعين حبة . من سبح النصارى ايضا واحدة مجموع حباتها ثمان وثلاثين حبة ، ثلاثة وثلاثون حبة منها تمثل عمر السيد المسيح عليه السلام والخمسة الاخرى تمثل عدد جراحات المسيح المقدسة(٦٥) . وعلى ذلك فلا علاقة بين هذه السبحة وبين ثلث السبحة العربية الاسلامية كما يظن البعض والبالغ عدد حباتها ثلاثة وثلاثون حبة .

ومن الجدير بالذكر ان بعض اصحاب الديانات الوثنية في جنوب آسيا استعملوا ايضا السبحة في الذكر والصلاة . وقد يكون هؤلاء اقدم عهدا بها من النصارى في استعمالها ، ولا يعني هذا ان العرب المسلمين او النصارى قد اقتبسوها منهم .

ومن السبح التي عرفت عند الهنود القدامى سبحة عدد حباتها ١٠٨ حبة مصنوعة من جذع او اغصان شجرة مقدسة هي شجرة التلسي كانت تكرس لترداد اسم الاله فشنو Fishnu كما كانت عندهم سبحة ثانية لتقديس الاله سيبوا Siva حباتها اثنان وثلاثون او اربعة وستون حبة كانت تصنع من بذور شجرة الردراكشه Rudrahsha .

وهناك اشارات الى سبح لها مدلولات دينية خاصة منها واحدة كانت تنضد من اسنان الموتى من البشر(٦٦) .

واذا انتقلنا الى الاماكن التي كانت تحفظ فيها السبح عند العرب فلا شك ان الثمينة منها كانت تحفظ في اماكن خاصة . فسبحة المقتدر التى مر

---

(٦٥) The Catholic Encyclopedia, P. 362.

(٦٦) Ibid., P. 362.

ذكرها كانت تحفظ في خريطة خاصة بها . ولا شك ان البعض منها كان يعلق كما مرّ بنا .

اما بالنسبة الى سبح المتصوفة والشيوخ قد وردت اشارات الى ان البعض كان يضعها في العمامة(٦٧) . او تعلق عند عدم الاستعمال حول العنق(٦٨) او تلف حول الذراع ففي قصيدة مدح فيها ابو النواس الوزير الفضل الربيع الذي توسط لدى الامين باطلاق سراحه من السجن قال :

انت يا ابن الربيع الهمتني وعودتنيه والخير عادة
فارعوى با طلي واقصر جهلي وتبدلت عفه وزهاده
والمسابيح في ذراعي والمصحف في لبتي مكان القلادة

واذا تركنا النصوص التاريخية ودراستها وانتقلنا الى البحث عن السبحة في المخلفات الاثرية التي ترجع الى العصر العباسي ، فلا شك ان المتاحف العالمية والمجاميع الخاصة زاخرة بالاف الخرز التي قد يكون الكثير منها في الاصل حبات سبح . غير انه لا يمكن اطلاقا البت في ان تلك الخرزات او بعضها هي هبات سبح وليست خرزات قلائد . ولهذا اتجهنا نحو التفتيش عن مصورات اشخاص ممسكين بايديهم سبحة . وعلى الرغم من التفتيش الدقيق بين رسوم المنمنمات الخاصة بالمخطوطات الموضحة بالصور ، او في الرسوم الجدارية او في الرسوم المحفورة على الاخشاب او رسوم التحف الخزفية وغيرها ، فاننا لم نحظ الا بمصورة واحدة فيها رجل بيده سبحة ، تعود الى اواخر العصر العباسي وذلك في منمنمة من منمنمات مخطوطة مقامات الحريرى محفوظة اليوم في المتحف البريطاني في لندن(٦٩) .

---

(٦٧) السيوطي ، الحاوى ، جـ٢ ، ص ١٤٣
(٦٨) الالباني ، ص ١١٣
(٦٩) Or. 1200 - 177 .

والسبحة مثار البحث طويلة نسبيا رغم ان عدد الحبات الظاهر فيها هو ست وثلاثين حبة . واذا اضفنا الى هذا العدد ست او سبع حبات وهو العدد التقديري الذي يقع ضمن الجزء المحصور في يد الشخص المسك بها ، فيكون المجموع هو اثنان واربعون او ثلاثة واربعون حبة تقريبا ، بما في ذلك خاتمة السبحة الظاهرة في جهتها السفلية . ومن الطبيعي اننا لا نستطيع ان نعتبر هذا العدد من الحبات دليلا او قياسا للعدد الحقيقي الصحيح في السبحة العربية الاسلامية في العصر العباسي اذ ان رسوم المنمنمات وغيرها الممثلة في الاثار الاسلامية المختلفة خاصة في العصر العباسي لا يمكن ان اعتبارها الا تمثيلا رمزيا غير دقيق للمصورات المراد توضيحها . وفي الحقيقة لو اخذنا طول السبحة بالنسبة الى الشخص الذي يحملها او بقية الاشخاص الممثلين في المنمنمة (شكل ١ و ٢) بنظر الاعتبار ، لوجدنا انها لا تقل في الطول باي حال من الاحوال عن ٦٠ سم وهو طول يكفي لنضد ما لا يقل عن ١٨٠ الى ٢٠٠ حبة من الحجم المتوسط .

ومن الملاحظات الاخرى التي لدينا على هذه السبحة العباسية ان خاتمتها تنتهي بخصلة خيوط على نفس الشاكلة المعروفة اليوم في السبح بشكل عام . ولا ندري ان كانت عامة بالنسبة الى السبح جميعا . لان السبحة الظاهرة في المنمنمة هي ، كما جاء في النص ، من ضروب السبح النسائية . فقد ذكر في المقامة ، وهي المقامة الدمشقية بان ابا زيد السروجي (حامل المسبحة) : « شخص ميسمه ميسم الشبان ولبوسه لبوس الرهبان وبيده سبحة النسوان وفي عينه ترجمة النشوان ... »(٧٠) .

ومهما يكن من امر فلا شك ان ندرة تمثيل اشخاص بيدهم سبحة في العصر العباسي يعود الى سببين . السبب الاول هو ان النظرة العامة الى السبحة في ذلك العصر هو نظرة يعوزها الاحترام الكبير ، ويعتريها شيء من

---

(٧٠) ابو القاسم الحريري ، المقامات ، ص ١١٣ (طبعة مصر ١٨٧٤) .

شكل رقم (١)

شكل رقم (٢)

الكراهية • وعلى ذلك فان استخدام السبحة بين الناس كان نسبيا قليل جدا • والسبب الثاني هو ان مصوري وفناني ذلك العصر لم يولوا المتصوفة والدراويش شيء من الاهتمام في مصوراتهم • فنحن نعلم علم اليقين ان الموضوعات التي صورت لنا في المخطوطات في العصر العباسي كانت - موضوعات علمية وطبية وادبية والقليل منها تاريخية • ولم يبدأ الرسامون في تصوير الموضوعات الدينية لا في العصور التي تلت العصر العباسي فكثرت عندئذ رسوم اشخاص يحملون بايديهم او يعلقون في اعناقهم سبح لا مجال للتطرق اليها في هذا البحث •